١- الحسن البصري (ت ١١٠هـ).

٢- إبراهيم بن أدهم (ت١٦١هـ/ ٧٧٨م).

٣- الفضيل بن عياض. (ت١٨٧هـ/٨٠٣م).

٤- أبو يزيد البسطامي. (ت ٢٦١هـ/٨٧٥م)

٥- محمد الغزالي. (ت٥٢٠هـ).

من أعلام التصوف:

- أعلام التصوف أكثر من أن يحصوا، وهم أعلام العلم والعلماء، وأهل الفضل والإحسان، وأصحاب التقوى والإيمان، وذو الذكر والعرفان وأكابر الصالحين وأهل اللّه، الذين ظهروا على مر العصور والأزمنة، وفي كل مكان وزمان، وحملوا راية الدعوة والإرشاد، والتزكية والإحسان، فبلغوا الأمانة، ونصحوا الأمة، وربوا الأجيال المتلاحقة، وحافظوا على السنة المطهرة، وعلى الأمة الخيّرة.

- ذكرت سيرهم وهم الألوف المؤلفة في العديد من كتب التراجم والسير نورد خلاصة بسيطة عن عدد قليل منهم للذكر لا للحصر، وللتعرف على هذه النماذج القدوة في العلم والصلاح والتزكية والإحسان والزهد والرضا والرضوان والصبر والشكر في كل حال من الأحوال، حتى أصبحوا منارات للهداية، وأئمةً في الزهد والصلاح والتقوى والورع والتوكل والرضا، يقتدي بهم مَنْ بعدهم من الذين ساروا على نهجهم وطريقتهم، فذاع صيتهم، وانتشر خبرهم وعلا أمرهم، وكثر الحديث عنهم، وعمَّ نفعهم في كل زمان ومكان وإلى يومنا هذا.

- هذا وإن الدارس لهؤلاء الأعلام يجد أن هناك تشابهاً بينهم في كثير من الأحيان في طريق وصولهم إلى معرفة الله ﷻ، واجتماع قلوبهم عليه، وذلك من خلال ما خصهم الله به من صحوة إيمانية، ودلالة ربانية عليه بعد أن كانوا في غفلة عنه، فأسرعوا إلى التمسك بهذا الطريق المستقيم والاستقامة عليه في أعلى مستواه، وأرقى محتواه، فأفاض الله على ألسنتهم من الأقوال التي فيها العظة النيرة والحكمة البالغة والعبرة القيمة التي انتفع بها كل من صاحبهم، وكل من سار على دربهم، واطلع بسلامة قلب على أخبارهم وأقوالهم.

- وقد اخترت عشرة من أعلامهم للذكر لا للحصر، لنقف على أحوالهم وأقوالهم بصفتهم نماذج لأولئك الأعلام، مع الانتباه إلى أنهم ما عدا حجة الإسلام

محمد الغزالي من الرعيل الأول، ومن القرون الخيرة التي ذكرها النبي ﷺ، فسنوات وفاتهم قبل القرن الثالث الهجري، وقد عاشوا في أزمان أئمة الفقه المجتهدين وأعلام الحديث رواية ودراية، فأخذوا عنهم وتعلموا، كما أخذ أولئك الأئمة عنهم واستفادوا، فكان عصرهم عصر الصفاء والنقاء والتمسك بالقرآن الكريم والسنة المطهرة العصرَ الذي لم تظهر فيه البدع في الدين أو البعد عنه فكانوا من القرون الخيرة التي ذكرها النبي ﷺ: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم».

(متفق عليه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه)

□ أولاً - الحسن البصري:

- هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري، كان من سادات التابعين وكبرائهم سناً ومقاماً، ولد لسنتين بقيتا من خلافة سيدنا عمر ﷺ، وحنكه عمر ﷺ بيده.

- كان أبوه مولى لزيد بن ثابت الأنصاري ﷺ وأمه خيرة مولاة أم سلمة زوج النبي ﷺ وكانت أمه تغيب أحياناً فيبكي فتأخذه أم سلمة تعلله بثديها حتى تعود أمه، ولتكرر محاولات إسكاته در عليه ثديها فرضع منها فهو من بيت النبوة رضاعة.

- وقد رأى ثلاثين ومائة من أصحاب النبي ﷺ، وكان يشبه كلامه كلام الأنبياء، وكان رجلاً غلب عليه الحزن، ومات في شهر رجب سنة عشر ومائة وهو ابن تسع وثمانين سنة.

- ويعدّه الصوفية في رأس سلسلة سند التصوف، فهم يقولون إنه أخذ الطريقة (ولبس الخرقة) من الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وعلي ﷺ أخذها من الرسول ﷺ.

- قال يونس بن عبيد (وهو من أصحاب الحسن): ما رأيت رجلاً قط أطول حزناً من الحسن، كان إذا أقبل كأنه أقبل من دفن أمه، وإذا جلس كأنه أسير قُدِّمَ ليضرب عنقه، وإذا تكلم كأن النار لم تخلق إلا له.

➢ من أقواله:

- لا تضحك فإنك لا تدري لعل الله قد اطلع على بعض أعمالنا فقال: لا أقبل منكم شيئاً.
- لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث، أنه لم يشبع مما جمع، ولم يدرك ما أحل، ولم يحسن الزاد لما قدم عليه.
- بئس الرفيقان: الدنيا والدرهم، لا ينفعانك حتى يفارقانك.

• لا تزال كريماً على إخوانك ما لم تحتج إلى ما في أيديهم فإذا احتجت إلى ما في أيديهم ثقل عليهم حديثك وَهُنت عليهم.

• عظ الناس بفعلك ولا تعظهم بقولك.

• إذا رأيت الرجل ينافس في الدنيا فنافسه في الآخرة.

• الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك.

• ما يسرني مودة ألف رجل بعداوة رجل واحد.

• نبكي على الميت ثلاثة أيام وعلى الأحمق حتى يموت.

• قيل له: إن الناس يقولون: إن الحجاج مغفور له، قال: آية ذلك أن يدع سيِّئ ما كان عليه.

• يا عجباً لقوم أمروا بالزاد ونودوا بالرحيل وحبس أولهم على آخرهم وهم قعود يلعبون.

• أصول الشر ثلاثة وفروعه ستة، فالأصول: الحسد والحرص وحب الدنيا، وفروعه: حب الرياسة، وحب الفخر، وحب الثناء، وحب الشبع، وحب النوم، وحب الراحة.

• من أحب الدنيا ذهب خوف الآخرة من قلبه.

• أكثروا من الاستغفار في بيوتكم وعلى موائدكم وفي طرقكم وفي أسواقكم وفي مجالسكم وأينما كنتم فإنكم لا تدرون متى تنزل المغفرة.

• المؤمن في الدنيا كالغريب لا ينافس في عزها ولا يجزع من ذلها، للناس حال وله حال.

• إن الرجل ليعمل بالحسنة فتكون نوراً في قلبه وقوة في بدنه وإن الرجل ليعمل بالسيئة فتكون ظلمة في قلبه ووهناً في بدنه.

• وكان من دعائه: اللهم عافيت فيما مضى فَعَافِ فيما بقي، اللهم أحسنت فيما مضى وأنت لما بقي.

• مسكين ابن آدم رضي بدار حلالها حساب، وحرامها عذاب، إن أخذه من حِلٍّ حوسب بنعيمه، وإن أخذه من حرام عُذب به.

• ابن آدم يستقل ماله ولا يستقل عمله، يفرح بمصيبته في دينه ويجزع بمصيبته في دنياه.

• كان يقول: لسان الحكيم من وراء قلبه إذا أراد أن يقول رجع إلى قلبه، فإن كان له قال، وإن لم يكن له أمسك.

• وكانوا يقولون: إن قلب الجاهل في طرف لسانه لا يرجع إلى قلبه ما أتى على لسانه تكلم به.

• إياكم وما يشغل من الدنيا، فإنه لا يفتح رجل على نفسه باباً من الدنيا إلا سد عليه عشرة أبواب من عمل الآخرة.

• ابن آدم اصحب الناس بأي خلق شئت يصحبوك بمثله.

قال أبو كعب صاحب الحرير: أردت سفراً، فأتيت الحسن، فقلت له: أَوْصِني، فقال: أعز أمر الله حيثما كنت يعزك، ففعلت: فلم أزل عزيزاً حتى رجعت.

□ ثانياً - إبراهيم بن أدهم:

- هو أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور، من كدرة بلخ في خرسان، كان من أبناء الملوك، فخرج يوماً يتصيد، فأثار ثعلباً أو أرنباً وهو في طلبه، فهتف به هاتف: يا إبراهيم ألهذا خلقت؟ أم بهذا أمرت؟ ثم هتف به: ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت.

- فنزل عن دابته، وصادف راعياً لأبيه، فأخذ جبة للراعي من صوف ولبسها، وأعطاه فرسه وما معه، ثم إنه دخل البادية، ثم دخل مكة المكرمة، وصحب بها سفيان الثوري والفضيل بن عياض، ثم انطلق إلى الشام طلباً للحلال فأقام بها غازياً (ت١٦١هـ/ ٧٧٨م).

- وكان يعمل في البساتين والحصاد وغير ذلك فيأكل من عمل يده.

- قال حذيفة المرعشي (وهو من كبار العباد): قدم شقيق البلخي (ستمر ترجمته) مكة وإبراهيم بن أدهم فيها فاجتمع الناس فقالوا: نجمع بينهما فجمعوا بينهما في المسجد الحرام.

فقال إبراهيم بن أدهم لشقيق: يا شقيق، على ماذا أصّلتم أصولكم؟ فقال شقيق: أصّلنا أصولنا أنا إذا رزقنا أكلنا، وإذا مُنعنا صبرنا. فقال إبراهيم بن أدهم: هكذا كلاب بلخ. إذا رزقت أكلت وإذا منعت صبرت، فقال شقيق: فعلى ماذا أصّلتم أصولكم يا أبا اسحاق؟ قال: أصّلنا أصولنا على إنا إذا رزقنا آثرنا، وإذا منعنا حمدنا وشكرنا. فقام شقيق وجلس بين يديه وقال: يا أبا إسحاق أنت أستاذنا.

- وكان إبراهيم بن أدهم يحرس كرماً، فمر به جندي، فقال: أعطنا من هذا العنب، فقال: ما أمرني به صاحبه، فأخذ يضربه بسوطه، فطأطأ رأسه، وقال: اضرب رأساً طالما عصى اللّه تعالى، فأعجز الرجل ومضى.

- حدث ابن تميم (ثقة صدوق، أحد النُّسّاك المجاهدين، صحب إبراهيم بن أدهم) فقال: قلت لإبراهيم بن أدهم: منذ كم أنت بالشام؟ قال: منذ أربع وعشرين سنة، وما أتيتها لرباط - يعني لغزو - قلت: فَلِمَ؟ قال: لأشبع من خبز الحلال.

- خرج إبراهيم بن أدهم من بيت المقدس فمر بمَسْلَحَةٍ (قوم ذوي سلاح) فقالوا: عبدٌ؟ قال: نعم، قالوا: آبق؟ قال: نعم، فذهبوا به فحبسوه بسجن في طبريا، قال فجاء رجل يطلب عبداً له آبقاً من بيت المقدس، فقيل له: إن في مسلحة كذا قد أصابوا غلاماً آبقاً، وهو في السجن بطبريا، قال: فذهب إلى السجن فإذا هو بإبراهيم ابن أدهم، قال: سبحان الله ما تصنع ها هنا، قال: أنا ها هنا، وما أحسن مكاني! قال: فرجع الرجل إلى بيت المقدس، فأخبرهم فجاء الناس من بيت المقدس إلى أمير طبريا فقالوا: إبراهيم ما يصنع في حبسك؟ قال: ما حبسته. قالوا: بلى، قال: فبعث إليه

فجاءه، فقال له: لَمَ حبست؟ فقال: مررت بمسلحة، فقالوا: عبدٌ، قلت: نعم وأنا عبد الله، قالوا: آبقٌ، قلت: نعم وأنا آبق من ذنوبي، قال: فخلى سبيله.

- كتب إبراهيم بن أدهم إلى سفيان الثوري: من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل، ومن أطلق بصره طال أسفه، ومن طال أمله ساء عمله، ومن أطلق لسانه قتل نفسه.

- كان إبراهيم بن أدهم في البحر فعصفت الريح واشتدت، وإبراهيم ملفوف في كسائه، فجعل أهل السفينة ينظرون إليه، فقال له رجل منهم: يا هذا ما ترى ما نحن فيه من هذا الهول، وأنت نائم في كسائك؟ قال: فكشف إبراهيم رأسه فأخرجه من الكساء ثم رفع رأسه إلى السماء، فقال: اللهم قد أريتنا قدرتك فأرنا عفوك، قال: فسكن البحر وهدأت السفينة.

- قالَ: يا أهلَ البصرةِ قد ماتتْ قلوبُكُمْ بعشرةِ أشياءَ فكيفَ يُستجابُ لكم؟

أولاً: عرفْتُم اللهَ و لم تؤدوا حقَّهُ.

ثانياً: قرأْتُم القرآنَ و لم تعملوا به.

ثالثاً: ادَّعيْتُمْ حُبَّ الرسولِ وتركْتُمْ سُنَّتَهُ.

رابعاً: ادَّعيتم عداوةَ الشيطانِ وأطعْتُموه.

خامساً: ادَّعيتم دخولَ الجنةِ و لم تعملوا لها.

سادساً: ادعيتم النجاةَ من النار ورَمَيْتُمْ بها أنفسَكُمْ.

سابعاً: قلتم الموتُ حقٌّ و لم تستعِدُّوا له.

ثامناً: اشتغلتم بعيوبِ الناسِ وتركتم عيوبَكُمْ.

تاسعاً: دفنْتُمْ موتاكم و لم تَعْتبروا.

عاشراً: أكلتم نعمةَ الله و لم تشكروه عليها.

➢ من أقواله:

● من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل، ومن أطلق بصره طال أسفه، ومن طال أمله ساء عمله، ومن أطلق لسانه قتل نفسه.

● اتخذ اللّه صاحباً، وذر الناس جانباً.

● من أراد الراحة فليخرج الخلق من قلبه حتى يستريح.

● كثرة النظر إلى الباطل يذهب بمعرفة الحق من القلب.

● ما صدق اللّه عبد أحب الشهرة.

□ ثالثاً - الفضيل بن عياض:

- هو الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي أبو علي، ولد بسمرقند ونشأ بكورة بأبيورد (مدينة بخورسان)، وقدم الكوفة وهو كبير، فسمع بها الحديث، ثم تعبد وانتقل إلى مكة فمات بها سنة (١٨٧هـ/٨٠٣م) في الشهر المحرم.

- قال الفضيل بن موسى (من أصحاب الفضيل): كان الفضيل شاطراً (قاطع الطريق) يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس، وكان سبب توبته أنه عشق جارية، فبينما هو يرتقي الجدار إليها سمع قارئاً يتلو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

فقال: يا رب قد آنَ، فرجع فآواه الليل إلى خربة، فإذا فيها رفقة، فقال بعضهم: نرتحل، وقال بعض آخر: حتى نصبح فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا، فتاب الفضيل وأمنهم، وجاور الحرم حتى مات.

- قال إسحاق بن إبراهيم (من أصحاب الفضيل): كانت قراءة الفضيل حزينة شهية بطيئة مترسلة، كأنه يخاطب إنساناً، وكان إذا مر بآية فيها ذكر الجنة يرددها،

وكان يلقى له حصير بالليل في مسجده، فيصلي من أول الليل ساعة حتى تغلبه عينه، فيلقي نفسه على الحصير، فينام قليلاً ثم يقوم، فإذا غلبه النوم نام، ثم يقوم هكذا حتى يصبح.

- قال وسمعت الفضيل يقول: إذا لم تقدر على قيام الليل، وصيام النهار، فاعلم أنك محروم مكبل كبَّلتكَ خطيئتك.

- وعن مهران بن عمرو الأسدي (من أصحاب الفضيل) قال: سمعت الفضيل ابن عياض عشية عرفة بالموقف، وقد حال بينه وبين الدعاء البكاء يقول: واسوأتاه وفضيحتاه إن لم تعْفُ عني.

- وعن أحمد بن سهل قال: قدم علينا سعد بن زنبور (من رواة الفضيل) فأتيناه فحدثنا قال: كنا على باب الفضيل بن عياض فاستأذنا عليه فلم يؤذن لنا، فقيل لنا إنه لا يخرج إليكم أو يسمع القرآن، قال: وكان معنا رجل مؤذن، وكان صيتاً، فقلنا له: اقرأ (ألهاكم التكاثر) فقرأها ورفع بها صوته، فأشرف علينا الفضيل، وقد بكى حتى بلَّ لحيته بالدموع، ومعه خرقة ينشف بها الدموع، وأنشأ يقول:

بلغت الثمانين أو جزتها ... فماذا أؤمل أو أنتظر؟
أتى لي ثمانون من مولدي ... وبعد الثمانين ما ينتظر؟
علتني السنون فأبلينني...

- قال: ثم خنقته العبرة، وكان معنا علي بن خشرم (ابن أخت بشر الحافي)، فأتمه لنا فقال:

علتني السنون فأبلينني ... فرقت عظامي وكلَّ البصر

- قال أبو علي الرازي (من أصحاب الفضيل): صحبت الفضيل ثلاثين سنة ما رأيته ضاحكاً ولا متبسماً إلا يوم مات ابنه علي، فقلت له في ذلك، فقال: إنَّ الله أحب أمراً فأحببت ذلك.

➢ من أقواله:

● لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت عليَّ ولا أحاسب بها لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه.

● ترك العمل لأجل الناس هو رياء، والعمل لأجل الناس هو شرك.

● قال لرجل: لأعلمنك كلمة هي خير من الدنيا وما فيها: والله لَئِنْ علم الله منك إخراج الآدميين من قلبك حتى لا يكون في قلبك مكان لغيره لم تسأله شيئاً إلا أعطاك.

● وعن الفضل بن الربيع (تولى الوزارة في عهد الرشيد) قال: حج أمير المؤمنين الرشيد فأتاني فخرجت مسرعاً فقلت يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليَّ أتيتك فقال: ويحك قد حاك في نفسي شيء فانظر لي رجلاً أسأله فقلت ها هنا سفيان بن عيينة فقال امض بنا إليه.

فأتيناه فقرعت الباب فقال من ذا؟ فقلت أجب أمير المؤمنين فخرج مسرعاً فقال يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك فقال له: خذ لما جئناك له رحمك الله (يريد النصيحة).

فحدثه ساعة ثم قال له عليك دين قال نعم فقال أبا عباس اقض دينه فلما خرجنا قال: ما أغنى عني صاحبك شيئا انظر لي رجلاً اسأله فقلت له هاهنا عبد الرزاق بن همام (من حفاظ الحديث الثقات، من أهل صنعاء) قال امض بنا إليه فأتيناه فقرعت الباب فقال من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين. فخرج مسرعاً فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك قال خذ لما جئناك له.

فحادثه ساعة ثم قال له عليك دين قال نعم قال أبا عباس اقض دينه.

فلما خرجنا قال ما أغنى صاحبك شيئا انظر لي رجلا اسأله قلت ها هنا الفضيل بن عياض قال: امض بنا إليه فأتيناه فإذا وهو قائم يصلي يتلو آية من القرآن

يرددها فقال اقرع الباب فقرعت الباب فقال من هذا فقلت أجب أمير المؤمنين فقال ما لي ولأمير المؤمنين فقلت سبحان الله أما عليك طاعة؟ أليس قد روي عن النبي ﷺ أنه قال: ليس للمؤمن أن يذل نفسه فنزل ففتح الباب ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ المصباح ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت فدخلنا فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كف هارون قبلي إليه فقال يا لها من كف ما ألينها إن نجت غداً من عذاب الله ﷻ فقلت في نفسي ليكلمنه الليلة بكلام نقيّ من قلب تقيّ فقال له خذ لما جئناك له رحمك الله فقال إن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة (وهم من علماء زمانه) فقال لهم إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا علي. فعد الخلافة بلاء وعددها أنت وأصحابك نعمة فقال له سالم بن عبد الله إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن إفطارك من الموت وقال له محمد بن كعب القرظي إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أباً وأوسطهم عندك أخاً وأصغرهم عندك ولداً فوقر أباك وأكرم أخاك وتحنن على ولدك.

وقال له رجاء ين حيوة إن أردت النجاة غداً من عذاب الله ﷻ فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك ثم مت إذا شئت وإني أقول لك إني أخاف عليك أشد الخوف يوماً تزل فيه الأقدام فهل معك رحمك الله من يشير عليك بمثل هذا؟ فبكى هارون بكاء شديدا حتى غشي عليه فقلت له ارفق بأمير المؤمنين فقال يا ابن أم الربيع تقتله أنت وأصحابك وارفق به أنا ثم أفاق فقال له: زدني رحمك الله فقال: يا أمير المؤمنين بلغني أن عاملا لعمر بن عبد العزيز شكا إليه فكتب إليه عمر يا أخي أذكرك طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد وإياك أن ينصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء قال فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر بن عبد العزيز فقال له ما أقدمك قال خلعت قلبي بكتابك لا أعود إلى ولاية أبداً حتى ألقى الله ﷻ.

قال فبكى هارون بكاء شديداً ثم قال له زدني رحمك الله فقال يا أمير المؤمنين إن العباس عم المصطفى ﷺ جاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أمرني على إمارة فقال له النبي ﷺ إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة فإن استطعت أن لا تكون أميرا فافعل.

فبكى هارون بكاء شديداً وقال له زدني رحمك الله فقال يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله ﷻ عن هذا الخلق يوم القيامة فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لأحد من رعيتك فإن النبي ﷺ قال: من أصبح لهم غاشاً لم يرح رائحة الجنة.

بكى هارون وقال له عليك دين قال نعم دين لربي يحاسبني عليه فالويل لي إن سألني والويل لي إن ناقشني والويل لي إن لم ألهم حجتي قال إنما أعني دين العباد قال إن ربي لم يأمرني بهذا أمر ربي أن أوحده وأطيع أمره فقال ﷻ:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٦- ٥٨].

فقال له هذه ألف دينار خذها فأنفقها على عيالك وتَقَوَّ بها على عبادتك فقال: سبحان الله أنا أدلك على طريق النجاة وأنت تكافئني بمثل هذا؟ سلمك الله ووفقك.

ثم صمت فلم يكلمنا فخرجنا من عنده فلما صرنا على الباب قال هارون: أبا عباس إذا دللتني على رجل فدلني على مثل هذا، هذا سيد المسلمين.

فدخلت عليه امرأة من نسائه فقالت يا هذا قد ترى ما نحن فيه من ضيق الحال فلو قبلت هذا المال فتفرجنا به فقال لها مثلي ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه فلما كبر نحروه فأكلوا لحمه.

فلما سمع هارون هذا الكلام قال ندخل فعسى أن يقبل المال فلما علم الفضيل خرج فجلس في السطح على باب الغرفة فجاء هارون فجلس إلى جنبه فجعل

يكلمه فلا يجيبه فبينا نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء فقالت يا هذا قد آذيت الشيخ منذ الليلة فانصرف رحمك الله فانصرفنا.

➢ **ومن أقواله أيضاً:**

- يجيء في آخر الزمان أقوام يكونون إخوان العلانية أعداء السريرة.
- لم يتزين الناس بشيء أفضل من الصدق وطلب الحلال.
- ثلاث خصال يقسين القلب: كثرة الأكل، وكثرة الكلام، وكثرة النوم.

□ رابعاً - أبو يزيد البسطامي:

- وهو أبو يزيد طيفور بن عيسى بن سروشان - وكان سروشان مجوسياً فأسلم- وكان لعيسى ثلاثة أولاد: أبو يزيد وهو أوسطهم، وآدم، وهو أكبرهم، وعلي وهو أصغرهم، وكانوا كلهم عباداً زهاداً، أما أبو يزيد فكان أجلهم حالاً، وهو من أهل بسطام (بلدة بالقرب من نيسابور)، وتوفي فيها سنة (٢٦١هـ/٨٧٥م) وله ثلاث وسبعون سنة.

- وسئل أبو يزيد: بأي شيء وجدْتَ هذه المعرفة؟ فقال: ببطن جائع، وبدن عار.

- وقيل: لم يخرج أبو يزيد من الدنيا حتى استظهر القرآن كلّه.

- إبراهيم الهروي قال: سمعت أبا يزيد البسطامي يقول: غلطت في ابتدائي في أربعة أشياء: توهمت أني أذكره، وأعرفه، وأحبه، وأطلبه. فلما انتهيت رأيت ذكره سبق ذكري، ومعرفته تقدمت معرفتي، وطلبه لي أولاً حتى طلبته.

- قال منصور وسمعت أبا عمران موسى بن عيسى يقول: سمعت أبي يقول: قال أبو يزيد عملت في المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئاً أشد عليَّ من العلم ومتابعته، ولولا اختلاف العلماء لتعبت، واختلاف العلماء رحمة إلا في تجريد التوحيد.

- سئل: أبو يزيد عن ابتدائه زهده، فقال: ليس للزهد مترلة. فقلت: لماذا؟ فقال: لأني كنت ثلاثة أيام في الزهد، فلما كان اليومُ الرابع خرجت منه: اليوم

الأول: زهدت في الدنيا وما فيها، واليوم الثاني: زهدت في الآخرة وما فيها، واليوم الثالث: زهدت فيما سوى الله، فلما كان اليوم الرابع لم يبق سوى الله.. فَهِمْتُ، فسمعت، هاتفاً يقول: يا أبا يزيد لا تقوى معنا. فقلت. هذا الذي أريده.

فسمعت قائلاً يقول: وَجدتَ، وجدت.

➢ من أقواله:

● لو نظرتم إلى رجل أُعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء، فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وأداء الشريعة.

● لا يعرف نفسه من صحبته شهوته.

● وقد سئل ما علامة العارف؟ قال: ألا يفتر من ذكره ولا يمل من حقه، ولا يستأنس بغيره.

● قال مخاطباً ربه: هذا فرحي بك وأنا أخافك، فكيف فرحي بك إذا أمنتك.

● اطلع الله على قلوب أوليائه، فمنهم من لم يكن يصلح لحمل المعرفة صرفاً، فأشغلهم بالعبادة.

● ليس العجب ممن لم يجد لذة الطاعة، إنما العجب ممن وجد لذتها ثم تركها كيف صبر عنها.

● لم أزل ثلاثين سنة كلما أردت أن أذكر الله أتمضمض وأغسل لساني إجلالاً لله أن أذكره.

● ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر.

● أشد المحجوبين عن الله ثلاثة بثلاثة، أولهم: الزاهد بزهده، والثاني: العابد بعبادته، والثالث: العالم بعلمه. ثم قال: مسكين الزاهد، لو علم أن الله ﷻ سمى الدنيا كلها قليلاً فكم ملك من الدنيا؟ وفي كم زهد مما ملك؟ وأما العابد فلو رأى

منَّةَ الله عليه في العبادة عرف عبادته في المنة، وأما العالم فلو علم أن جميع ما أبدى الله ﷻ من العلم سطراً واحداً من اللوح المحفوظ فكم علم هذا العالم من ذلك السطر؟ وكم عمل مما علم؟

● قعدت ليلة في محرابي فمددت رجلي فهتف بي هاتف من يجالس الملوك فينبغي أن يجالسهم بحسن الأدب.

● الناس كلهم يهربون من الحساب ويتحافون عنه، وأنا أسأل الله تعالى أن يحاسبني فقيل له: لم؟ قال: لعله أن يقول لي فيما بين ذلك: يا عبدي، فأقول: لبيك. فقوله لي: عبدي أحب إلي من الدنيا وما فيها. ثم بعد ذلك يفعل بي ما يشاء.

● قال لرجل سأله: دلني على عمل أتقرب به إلى ربي ﷻ؟ فقال: أحبب أولياء الله تعالى ليحبوك فإن الله تعالى ينظر إلى قلوب أوليائه فلعله أن ينظر إلى اسمك في قلب وليه فيغفر لك.

نظرت فإذا الناس في الدنيا متلذذون بالنكاح والطعام والشراب، وفي الآخرة بالمنكوح والملذوذ، فجعلت لذتي في الدنيا ذكر الله ﷻ وفي الآخرة النظر إلى الله ﷻ.

□ خامساً - محمد الغزالي:

- هو أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي الشافعي المعروف بالغزالي (زين الدين، حجة الإسلام) ولد بطوس سنة (٤٥٠هـ /١٠٥٨م) وتوفي سنة (٥٠٥هـ/١١١١م) أي عاش خمساً وخمسين سنة فقط، وعرف بالغزالي وقد تشدد الزاي نسبة إلى حرفة والده وهي غزل الصوف، وقد تخفف نسبة إلى قريته التي ولد بها (غزالة في نواحي طوس).

- وهو متكلم، فقيه، أصولي، صوفي مشارك في أنواع من العلوم، له نحو مائتي مصنف في هذه العلوم المتعددة أشهرها: (إحياء علوم الدين) و(تهافت الفلاسفة) و(محك النظر) و(معارج القدس في أحوال النفس) و(الفرق بين الصالح وغير الصالح)

و(مقاصد الفلاسفة) و(الوقف والابتداء) في التفسير، و(البسيط) في الفقه، و(المعارف العقلية)، و(المنقذ من الضلال)، و(بداية الهداية).

- مولده ووفاته في الطابران (إحدى مدينتي طوس بخراسان)، رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر وعاد إلى بلدته.

- ولقد كانت بيئته في طفولته وتربيته المترلية الأولى ذات أثر واضح في تكوينه فيما بعد.

- فقد ولد في أسرة فقيرة متدينة، وحينما أحس أبوه بقرب أجله عهد برعاية ولديه أبي حامد وأخيه الأصغر منه المسمى أحمد إلى أحد أصدقائه من الصوفية.

- وقد قام هذا الرجل بواجبه في الإشراف على تربيتهما وتعليمهما ثم نصحهما بالانتقال إلى نيسابور، وهناك طلب الغزالي الفقه لتحصيل القوت، ثم ارتحل إلى أبي نصر الإسماعيلي (وهو من كبار علماء زمانه) بجرجان (مدينة عظيمة مشهورة بقرب طبرستان)، ثم تم له الاتصال بإمام الحرمين (أبي المعالي الجويني)، فاشتغل عليه ولازمه، فظهر نبوغ الغزالي في فترة مبكرة، ثم جلس للإقراء، وحضر مجلس الوزير نظام الملك، فأقبل عليه نظام الملك، فعظمت مترلة الغزالي، وندب للتدريس في نظامية بغداد.

- وقد أصبح الغزالي من أعلام مذهب الشافعي في الفقه، وأحد أركان المدرسة الأشعرية، بالإضافة إلى تعمقه في الفلسفة والمنطق والأصول.

- ولم يجد فيها راحته القلبية حتى اجتمع بالإمام الزاهد المتصوف أبي علي الفضل بن علي الفارمذي الطوسي (من كبار رجال التصوف) فأقبل عليه وأخذ منه علم التصوف وأخذ يطالع كتب التصوف فتعرف على كنه مقاصدهم، ثم دخل مدخلهم، وذاق أحوالهم، وسار في طريقهم.

- ويتحدث الغزالي عن تجربته الصوفية في كتابه المنقذ من الضلال بعد أن فرغ من علوم الشريعة بكتاب الأربعين، وعلوم الفلسفة القديمة في كتاب مقاصد

الفلاسفة وكذلك التهافت يقول واصفاً التصوف والصوفية: (ثم إني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل، وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس، والتنـــزُّه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله.

وكان العلم أيسر علي من العمل، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل: قوت القلوب لأبي طالب المكي رحمه الله، وكتب الحارث المحاسبي، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي قدس الله أرواحهم وغيرهم من المشايخ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع. فظهر لي أن أخص خواصهم، ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات، فعلمت يقيناً أنهم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال، والقدر الذي أذكره لينتفع به، هو أني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جُمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً، وإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به، فأيقنت أنهم الفرقة الناجية.

وماذا يقول القائلون في طريقة أول شروطها: تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، وعمادها ومفتاحها الجاري منها مجرى الإحرام في الصلاة: استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء في الكلية بالله).

- ثم أقبل الغزالي على العبادة والسياحة، فخرج إلى الحجاز فحج، ورجع إلى دمشق فاستوطنها عشر سنين ثم سار إلى القدس والإسكندرية، ثم عاد إلى وطنه

بطوس، ثم إن الوزير فخر الدين ابن نظام الملك طلبه إلى نظامية نيسابور، فأجاب إلى ذلك، ثم عاد إلى وطنه، وابتنى إلى جواره خانقاه (داراً) للصوفية ومدرسة لهم.

- ومن أراد أن يتعرف على أقوال وأعمال هذا العالم الفاضل فعليه أن يرجع إلى مؤلفاته الكثيرة في شتى العلوم الإسلامية.

- هذا وإن الدارس لعصر هذا الإمام الفاضل، وما اشتهر به هذا العصر من انتشار الفلسفة الدخيلة على العالم الإسلامي التي كادت تؤثر على أفكار المسلمين وتحرفهم عن جادة الصواب يدرك السبب الذي دفع هذا المجدد إلى الرد على هؤلاء الفلاسفة بمؤلفاته المتعددة التي كانت سبباً في عودة المسلمين إلى جادة الصواب، والتمسك بتعاليم الإسلام النابعة من القرآن والسنة، فكان حقاً حجة الإسلام، وحجة المسلمين.

- ولابد لكل طالب علم في كل زمان ومكان أن تحتوي مكتبته كتابه الجامع للعلوم المتعددة (إحياء علوم الدين) الذي يجد فيه الطالب كل ما يحتاجه من نفائس علوم الدين المتعددة.

وأما في مجال التصوف فلقد أضاف الغزالي للفكر الإسلامي من خلال تصوفه تجديداً وتصويباً وتنويراً في علوم التصوف أذكر منها ما يلي:

١- أعاد للعبادة جانبها الروحي من خشوع ورهبة، بعد أن حولها بعض الفقهاء إلى مجرد طقوس شكلية.

٢- حبب التصوف للناس بإزالة ما لحق به من فكر دخيل، مع إثباته أن المكاشفة تصل إلى ما لم يصل إليه العقل.

٣- كان المتصوفة قد استكانوا إلى الحب الإلهي وأغراهم الاطمئنان فأدى بهم إلى التقصير، فأعاد الغزالي للتصوف الخوف من اللّه على طريقة الحسن البصري.

٤- فلسف العبادات بإظهار حكمة التشريع فصارت قراءة الفقه أكثر إمتاعاً من عرض الفقهاء له.

٥- رفض ما دخل في التصوف من تطرف وخروج عن تعاليم الشريعة بتأثير الفلسفات الغربية بالإضافة إلى ما دخله من شعوذة وسحر وهذيان لا قيمة له إلا في نظر العامة.

٦- التركيز على تطهير الباطن وتصفية القلب وعدم الانخداع بالمظاهر، والقشور لأن ذلك يؤدي إلى انتكاس النفس ووقوعها في الرياء.

-**وأخيراً**: كان اعتناق الغزالي لمذهب التصوف نصراً باهراً للصوفية، فأخذ أهل السنة من بعده بالتصوف السني النابع من القرآن والسنة والبعيد عن التطرف أو الخروج عن تعاليم الشريعة، والبعيد عن الشعوذة والسحر والهذيان، والتركيز على تطهير الباطن، وتصفية الباطن وعدم الانخداع بالمظاهر والقشور لأن ذلك يؤدي إلى انتكاس النفس في الرياء.